أعلام وأعيان تلاميذ الهلالي من خلال لقاءات معهم في أماكن متعددة (2)

الأستاذ الحاج أبو عبدالسلام أحمد بن عبدالسلام هارون التطواني

هو مدير تحرير مجلة «لسان الدين» لتقي الدين الهلالي.

كان اللقاء في مدينة تطوان بتأريخ 5 محرم 1430هـ الموافق 2 فبراير 2009م، أجراه الأستاذ أيوب بولسعاد في بيت أحمد هارون.

كانت أول معرفتي بشيخنا العلامة محمد تقي الدين الهلالي وأنا أدرس عليه اللغة العربية في المعهد الحر بتطوان، والتمس الشيخ فيَّ روح الخدمة وسلامة الصدر وحب الناس، وكان ذلك سببًا لاختياري في مساعدته، ولاسيَّما في إدارة شؤون مجلته «لسان الدين».

وكان تأسيس الهلالي لمجلته «لسان الدين» للحاجة الماسَّة التي رآها في تطوان من بعض العلماء في غفلتهم عن معرفة التوحيد الصافي، ولذيوع البدع الشركية عندهم، وتأثَّر بهم العامة علىٰ اختلاف أنواع هذه البدع، وكذلك لأن علماء تطوان والمغرب بعامة كانوا لا يقيمون للسنة وزنًا، ولا يعرفون الفقه إلا من المختصرات والحواشي الجامدة، لما يغلب عليهم من التقليد المذموم.

فبدأ الهلالي دعوته للتوحيد والسنة من خلال تأسيس المجلة، وكان سلاحه في الدعوة إلىٰ الله هو الشِّعر، وكان سلاحه رائجًا آنذاك، فكان جُل شِعره هجوًا لمخالفيه من أهل الطرق والبدع.

واستجاب له الكثير من الشَّباب والقليل من الشُّيَّاب، وكانت للهلالي حلقة في الجامع الكبير بتطوان بين المغرب والعشاء بعد قراءة الحزب؛ يشرح فيها القرآن، وكان بعض أهل البدع يشغِّبون عليه بكلِّ ما أوتوا من قوة وطاقة، فيتكلم الهلالي مع الفقيه ابن تاويت، ويتدخل أعيان البلد؛ فأجازه، فكان الهلالي حاملًا لرخصة الوعظ والإرشاد من

طرف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وبالرغم من ذلك كان بعض المنسوبين للعلم غير راضين عن دعوته، ولكنهم كانوا يخضعون لعلمه، ولا يستطيعون مناظرته.

وأقام الهلالي علىٰ هذا في تطوان أكثر من ربع قرن، ولكن علىٰ فترات متقطعات، تخللها غياب وأسفار.

وكان أحمد هارون من تلاميذ الهلالي المقرَّبين جدًّا، وكان الهلالي يعتمد عليه كثيرًا[1]، وهو من لازمه في أسفاره القريبة والبعيدة، وكان الهلالي يكتب له في بعض الأحايين: «مقام الولد العزيز»[2].

وبالنسبة لـ مجلة «لسان الدين» فقد «أخذت التصريح من الإسبان[3] وكانوا يخصصون لها مزانية طبقًا للقوانين الإسبانية، ومنعتُ من العمل فيها لأن الإسبان أخبروا الشيخ بأني أوزِّع بعض المنشورات ضدهم، فخيَّروه بين الميزانية وبين المدير المسؤول، فرجَّح الاستمرار في نشر المجلة.

وبقيت أشتغل أنا في الظل[4].

كان الهلالي دائم الكلام في العلم والكتابة والأشغال العلمية والبحث في المجلة دون الاشتغال بالأمور المباحة والدنيوية.

وكان الأخ بو خبزة يصحِّح مقالات المجلة.

وكان يتشاور كثيرًا مع صديق عمره وأخيه العلَّامة السلفي عبدالله كنون».

1() ظهر لي هذا من خلال امتداد الأعوام التي وقعت فيها المراسلة بينهما، وهي تزيد علىٰ أربعة وعشرين عامًا، وكذا علىٰ كثرة المراسلات؛ فوقفت علىٰ سبعة وسبعين رسالة أرسلها الهلالي له، انظرها في «مراسلات الهلالي» (1/ 356-470).

2() انظر «مراسلات الهلالي» (1/ 355).

3() أرسل لي الأستاذ أحمد هارون التصريح، وسأضعه في أول تعريفي بـ «المجلة» عند نشري لها.

4() أصبح المدير المسؤول بعده: الأستاذ محمد بن محمد بن فريحة، ومات في حياة الهلالي، انظر: «مراسلاته» (1/ 227).

ويقول عن سبب رحلة الهلالي إلىٰ القطب الشمالي -وكان رفيقًا له فيها-:

«وصلت العلاقة بينه وبين الإسبان إلىٰ الطريق المسدود، وحينئذ أعطىٰ المجلة لأخيه عبدالله كنون فوافق الإسبان علىٰ ذلك؛ بحكم أن كنون من أعيان المغرب ولحصوله علىٰ الدكتوراه من الإسبان.

بعد ذلك قرر الرحلة إلىٰ القطب الشمالي للتأكد من أن الشمس والليل يستمرَّان ثلاثة أشهر بعد أن أخبره بذلك طبيب عربي مسلم[5] أنه رأىٰ ذلك بعينه.

فسافرنا إلىٰ القطب مدة أشهر بعد أن أخذ منحة من فرنسا للدارسة فيها، ودرس الفرنسية في فرنسا علىٰ طريقة (BRIL) (فاقدي البصر)، لأنه أصيب بمرض في العين منذ الصغر عند نشأته في قريته تافيلالت بالمغرب، فلم ينفعه أي دواء لذلك، وفي الكبر كان يقرأ بالزجاج المكبِّر.

وكان دائم الكتابة والتأليف والنظم عند ركوبه السيَّارة، وإن كانت المسافة قريبة جدًّا، وكان حريصًا كل الحرص علىٰ الوقت لا يضيِّع منه ولو لحظة.

وفي فرنسا كان يحب إلقاء الدروس في مطاعم الجزائريين في باريس، لكن الناس أعرضوا وأبَوا الاستماع لدعوته، لكن ذلك لم يمنعه من الجهر بالدعوة إلىٰ الله.

وتزوَّج في فرنسا، ولعل له ابنة هنالك!

وعند رجوعنا من أوروبا كان يتنقل بين تطوان وشفشاون ينزل عند الرَّيسوني الفقيه؛ لأنه كان يدعمه ويسانده عندما يشتد عليه الضغط في تطوان».

ويقول أحمد عبدالسلام هارون عن **تعلق شيخه بالكتب**:

«كان -رحمه الله تعالىٰ- شغوفًا بالكتب وجُلُّ ماله في ذلك.

5() اسمه الدكتور زين العابدين خير الله الحلبي، أستاذ في مستشفىٰ الأمراض الخاصَّة بالنساء في (جامعة ماربوك) بألمانيا، أفاده الهلالي في مقالة «الشمس في نصف النهار».

كانت تغلب عليه الشدة والحدَّة كما هو طبع الفلاليين، خصوصًا لو كان الأمر يتعلق بالدِّين، ويا ليت لم تكن فيه تلك الشدة؛ لكان استجاب له كثير من المناوئين.

والقليل من الطلبة الذين يطيقونه!

لكنِّي افتقدته كثيرًا عندما توفي -رحمه الله تعالىٰ-.

وسجن ذات مرة في الشَّاون؛ لأنه أمر بالمعروف ونهىٰ عن المنكر في صلاة الجمعة، وبيَّن أن قراءة الحزب في المسجد جماعة بدعة مغربية محضة.

وكان مِزواجًا مِطلاقًا.

ونشكر الشيخ مشهور لاهتمامه بتقي الدين الهلالي، وجزاكم الله خيرًا».

ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أمور:

أولًا: أرسل لي الأستاذ أحمد هارون عددًا من الرسائل المتبادلة مع شيخه الهلالي، ووضعتها في كتابي «مراسلات الهلالي» (4/ 1741-1742-الفهارس منه).

ثانيًا: كان من ضمن ما أرسل أصولًا من «منحة الكبير المتعالي في شعر وأخبار محمد تقي الدين الهلالي»[6]، بعضها بخط الأستاذ عبدالكبير البكري (المقيم في وهران، وهو زوج ابنة الهلالي)؛ فيما أفاد ابن الطيب (ولد عم الهلالي وكاتبه الخاص) وبعضها بخط الأستاذ العلامة محمد بو خبزة المعروف لدي.

وحصَّلتُ أصلًا ثالثًا من «الديوان» -أيضًا-، وهو نُتَف متناثرة من «الديوان» مع بعض المقدِّمات بخط اليد.

فهذه الأصول الثلاثة المهمة[7] زوَّدني بها الأستاذ أحمد هارون، وكانت من أشد المُعِينات لإخراج «ديوان الهلالي»، فجزاه الله خيرًا.

6() هذا اسم «ديوان الهلالي».

7() انظر توصيفها في مقدمتي لـ «ديوانه» (ص38-41)، وزدتُ عليها سبعًا أخرىٰ.

ثالثًا: وجدتُ بحوزة الأستاذ أحمد هارون عدة رسائل للهلالي أرسلها إلىٰ الزعيم عبدالخالق الطُّرَيْس وشكيب أرسلان وعبدالظاهر أبو السمح وغيرهم ووضعتها في كتابي «رسائل الهلالي» الشخصية.

رابعًا: زوَّدني الأستاذ أحمد هارون بعدد من الوثائق الإدارية والقانونية تخص الهلالي، وبعضها بالألمانية والإسبانية والإنجليزية، وهي نافعة، وعملتُ علىٰ نشرها مع ترجمتها في «رسائل الهلالي» -أيضًا-.

ولا يفوتني أن أشكر الأستاذ أحمد هارون علىٰ فوائده الجمَّة، وإتحافه لي بالوثائق التي عنده[8].

ثم بلغني وفاته في زيارتي للمغرب في جمادىٰ الآخرة سنة (1441هـ)، وكتب لي ولده عبد السلام أن ميلاد أبيه بتطوان في (26/ 6/ 1923م) وأن وفاته بها في (14/ 11/ 2012) -رحمه الله تعالىٰ-.

8() كان عند اللقاء به في سنة 1430هـ مريضًا جدًّا، فأسأل الله له العافية.